

بين القديم والجديد في الموضوعات الشعرية

اتسعت طاقة الشعر العربي بالاندلس في القرن الخامس الهجري اتساعا مشهودا وقد تجلى ذلك في التطورات التي ظهرت في موضوعات الشعر الاندلسي، فقد تحلل الشعراء الاندلسيون من الجمود عند الموضوعات القديمة واخذوا يجددون فيها ويطورون على وفق العوامل البيئية المختلفة التي ظهرت تاثيراتها المباشرة على الشعر والشعراء، فالمديح الذي هو اعلى منابر الشعر العربي والذي حرص الشعراء العرب دوما على احاطته بهالة من المحافظة سواء في الشكل ام في المضمون نجده في الاندلس وفي القرن الخامس خاصة قد تلون بتلون العصر وصبغ بصبغة الحضارة التي اخذت الاندلس بناصيتها فضلا عن الاثر الكبير الذي تركته الطبيعة في مضامين القصائد الاندلسية وفي شتى الفنون والاعراض. فعلى الرغم من تمسك الشعراء بالمعاني التقليدية المتداولة في فن المديح - من الاشادة بالمدوح واسباغ اجمل الصفات والسجايا عليه فضلا عن العناية بجزالة الالفاظ وقوتها مما يتلاءم مع هذا الغرض - نلاحظ ان هذه الامور قد تغيرت بشكل او بآخر في الاندلس في هذا القرن، فلم يعد الشاعر ملزما بتلك المعاني المكرورة الذي يبعث تكرارها السامة في نفوس مستمعيه، بل جدد في تلك المعاني تجديدا فرضته عليه طبيعته اولا- عندما منحت تلك المعاني رقة ونعومة - ثم ملابسات التطور التي طرأت على الحياة الاندلسية ثانيا فضلا عن تركيبة الشاعر ذاته وما ترتب عليها من امور نفسية ظهر صداها في على آثاره وابداعاته.

فمن قصيدة لابن زيدون يستعطف بها (ابا الحزم بن جهور) بعد ايداعه السجن يقول

في مطلعها:

ما جال بعدك لحظي في سنا القمر
الا انكرتك نكر العين بالاثر

ثم يمتدح الوزير (ابا الحزم) بقوله:

وزير سلم كفاه يمن طائره
شؤم الحروب وراى محصد المرر
اغنت قريحته مغنى تجاربه
ونابت اللحة العجلى عن الفكر
كم اشترى بكرى عينيه من سهر
هدوء عين الهدى في ذلك السهر

فعلى الرغم مما تضمنته هذه الابيات من معان انطوت في معظمها على المديح اتى هذا المديح مغايرا لما الفناه لدى كثير من الشعراء الذين تكاد تكون مدائحهم متشابهة لتشابه مضامينها التي تبتعد كثيرا عن معاني الشجاعة والكرم والاباء وغيرها من المعاني الاخرى التي يمكن شمولها جميع قصائد المديح مهما بلغت صفات المدوح، ويكمن ذلك الاختلاف في ان

ابن زيدون تعدد امتداح ذلك الحاكم بصفاته الحقيقية ولم يكلف نفسه عناء البحث عن صفات اخرى ليخلعها عليه، فضلا عن ان الصفات التي امتدحها فيه - والتي كان اهمها التسامح والمسالمة وسلامة الفطرة - لم تكن من ضمن ما اعتاده العرب في تضمينها قصائدهم والتفاخر بها، لابتعادها عما عهدوه من صفات الفرسان العرب وسجاياهم ونفوسهم المفعمة بالشجاعة والاقدام. ولعل الشاعر قد تعدد ذلك لا ليقفل من شأن ممدوحه حسب بل ليؤكد فيه صفة مهمة جدا قلما اتسم بها حكام الطوائف في ذلك القرن وهي حبه لرعيته وسعيه للحفاظ على ارواحهم وتأمين سلامتهم من شر الحروب، وذلك مما جنب قومه الكثير من سفك الدماء. وعلى الرغم من عدم تمرس ذلك الحاكم وقلة درايته بامري السياسة والحكم اللتين فرضتا عليه فرضا بيد ان ما اوتي من فطرة سليمة وصفاء قريحة اغنته عن الممارسة الطويلة كما كفته حدة ذكائه واتقاد ذهنه مؤونة تغليب الرأي واعمال الفكر.

تلك المعاني لم يكن يعتد بها الشعراء كثيرا في مدائحهم لانها سمات يمكن ان يتحلى بها عامة الناس، بيد ان الشاعر بعبقريته المتفردة وموهبته المتميزة تمكن من توظيفها توظيفا منح تلك الصفات رؤية جديدة فالبس ابياته ثوبا جديدا من المعاني الحقيقية الخالية من أي كذب او رياء التي انطبقت على صاحبها ومن العسير جدا امكانية شمولها غيره مما منحها اصالة وذلك لانطوائها على تجربة حقيقية ذات ملامح اصيلة غير مزيفة.

وربما تكون تلك الصراحة التي شهدتها معاني الابيات المتقدمة قد استمدها الشاعر من واقع بيئته الصافية الخالية من أي تزيف والتي ظهر تأثيرها في وجوه الحياة المختلفة او قد تكون تعبيرا عن حاجة مكبوتة في نفس الشاعر الذي اتعبته السياسة وملابساتها وما تتطوي عليه احيانا من متاعب والام وما تجره اليه من ويلات جعلته يجنح في وجدانه الى حبه السلام ويغضه الحروب ليجد ضالته في ذلك الحاكم العادل فسعى الى ترسيخها فيه والتفاخر بها.

اما الشاعر (ابن عمار) فله قصيدة يمتدح فيها احد الكتاب الذي نزل الشاعر ضيفا

عليه قائلا:

هصرت لي الامال طيبة الجنى	وسوغتني الاحوال مقبلة الدنا
والبستني النعمى اغض من الندى	واجمل من وشي الربيع واحسنا
وكم ليلة احظيتني بحضورها	فبت سميرا للسناء وللسنا
اعل نفسي بالمكارم والعللا	واذني وكفي بالغناء وبالغنى
ساقرن بالتمويل ذكرك كلما	تعاورت الاسماء غيرك والكنى
لا وسعتني قولا وطولا كلاهما	يطوق اعناقنا ويخرس السننا
وشرفتني من قطعة الروض بالتي	تناثر فيها الطبع روضا وسوسنا
تروق بجيد الملك عقدا مرصعا	وتزهو على عطفه برداً مزينا

التي تعد من اروع ما نظم إذ جسد بكلماتها العذبة تلك الام العشاق وأنينهم مترجما بمعانيها الرائعة اهتزازات القلوب واختلاجات النفوس. وهكذا جال ابن زيدون في عالم الخيال جولات واسعة أبعدته عن التقليد متنقلا بالغزل الى (وضع واسلوب جديدين تحقق فيهما شيء كبير من الوضوح والبروز في ملامح القصيدة الغزلية كالاستقلالية ووحدة الجو النفسي الذي تخضع له التجربة الشعرية المعاناة ثم الصدق في تصوير المشاعر الوجدانية والانفعالات العاطفية فضلا عن ظهور شخصية المرأة وتحدد ملامحها بعد ان كانت في الشعر العربي القديم رمزا يستوحيه الشاعر ليعبر به عن امور اخرى.

ولم يكن ابن زيدون هو الشاعر الوحيد الذي نقل القصيدة الغزلية هذه النقلة بل ان كثيرا من شعراء ذلك القرن سعوا الى تحقيق تلك النقلة الاصلية في عالم الشعر والغزل.

هذا وقد بدت اثار البيئة الاندلسية واضحة في اشعار الاندلسيين الغزلية، فقد شاع عندهم الغزل النصراني وذكر الكنائس والقساوسة والصلبان كما هو الحال في غزل ابن الحداد في حبيبته (نوبرة) النصرانية الذي سلك في غزله فيها مسلكا جديدا تخطى فيه ما عهده العرب في غزلياتهم من وصف النفس والامها وتباريح الهوى الى الحديث عن اوصاف المسيحية والفسس والكنائس وغيرها من الامور الاخرى التي انما دلت على شيء فانما تدل على شدة تأثر الشعر بمؤثرات الحياة المختلفة ودلت ايضا على قدرة شعراء ذلك القرن على الابتكار وسعة خيالهم. فمن شعره فيها ق:

فان بي للروم رومية	تكس ما بين الكنيسات
اهيم فيها والهوى ضلة	بين صوامع وبيعات
وفي ظباء البدو من يزدي	بالظبيات الحضرية
افصح وجدي يوم فصح لهم	بين الاريطي والدويحات
وقد اتوا منه الى موعد	واجتمعوا فيه لميقات
مواقف بين يدي اسقف	ممسك مصباح ومنساة
وكل قس مظهر للتقى	باي لانصات واخبارات
وعينه تسرح في عينه	كالذئب يبغي فرس نعجات
أي امريء سالم من هوى	وقد رأى تلك الظبيات
وقد تلوا صحف اناجيلهم	بحسن الحان واصوات
وناظري مخلس لمحها	ولمحها يضم نوعاتي
ففي الحشا نار نوبرة	علقتها منذ سنينيات

اذن لم يكن التغزل بالنصارى والافتتان بجمالهم هو وحده الجديد في شعر (ابن الحداد) بل ايضا في اطنابه في وصف كل ما يتعلق بمراسيمهم وتقاليدهم وشعائره الدينية وصولا الى وصف محبوبته، وهذا امر مستحدث في الشعر العربي ولكنه لم يكن جديدا مطلقا على ذلك المجتمع المستنبت الذي جمع اصنافا مختلفة من البشر من مختلف الاعراق والجنسيات والاديان ليبدو اثر كل ذلك جليا في الشعر الذي هو تعبير عن وجدان الامة بكل ما يحيط بها ليكشف عن صدق تجاربه الشعورية وحقيقية احساسها.

وهكذا تغير ذوق الشاعر الاندلسي على وفق تغير بيئته فلم تعد المحاسن المشرقية تستهويه كما استهوته محاسن المغاربة التي شغف بها فراح مشبها بالشعر الاشقر والعيون الزرق لكثرة ما كانوا يصيبون من سبي الفرنجة، فمن ذلك قول ابن سارة الشنتريني:

ومهفف ابصرت في اطواقه قمر بافاق المحاسن يشرق
تقضي على المهجات منه صعدة متألّق فيه سنان ازرق

فقد جدد (ابن سارة) في ابياته تلك عندما ضمن قصيدته معاني جديدة على الذوق العربي، ويكمن تجديده ايضا في براعته في اخراج الصور البيانية وتلفه بها. وعلى الغرار ذاته نظم (ابن حزم) قصيدته التي يقول فيها

يعيبونها عندي بشقرة شعرها فقلت لهم: هذا الذي زانها عندي
يعيبون لون النور والتبر ضلة لرأي جهول في الغواية ممتد
وهل عاب لون النرجس الغض عائب ولون النجوم الزاهرات على البعد
ما بعد خلق الله من كل حكمة مفضل جرم فاحم اللون مسود
به وصفت اللون اهل جهنم ولبسة باك مثكل الاهل محتد
ومذ لاحت الرايات سودا تيقنت نفوس الورى ان لا سبيل الى الرشد

لقد انطوت هذه الابيات على دلالات اجتماعية ونفسية وسياسية استمدت من واقع البيئة الاندلسية مما يؤكد اصالة الغزل في هذا القرن الذي اضحى فيه بياض البشرة وشقرة الشعر سمتين شائعتين في ذلك العصر ومفضلتين في الذوق الاندلسي، وكشفت الابيات ايضا عن اعتداد الشاعر بنفسه وشدة ثقته بذوقه وجهره بافكاره مما اعتاده دائما في حياته وكشف كذلك عن الحرية الاجتماعية التي تميز بها هذا القرن ومنها حرية الرأي، وبينت تلك الابيات ايضا اثر الطبيعة الاندلسية التي تركت ملامحها واضحة في الشعر الاندلسي بدا ذلك واضحا في معاني الطبيعة التي وظفت في هذه الابيات كالنور والنرجس والنجوم ونطوت هذه الابيات على موقف

بسام ذخيرته من ايراد نماذج من هذا الهجاء، ولكنه اورد نماذج من مليح تعريضهم الذي يتضمن هجاء غير صريح)

فمن ذلك قول ابي بكر في هجاء نزهون:

على وجه نزهون من الحسن مسحة
قواصد نزهون توارك غيرها
وتحت الثياب العار لو كان باديا
ومن قصد البحر استقل السواقيا

فاجابته:

ان كنت ما قلت حقا
فصار ذكوري ذميما
من بعض عهد كـريم
يعزى الى كل لوم
فصرت اقبح شيء
في صورة المخزومي

ولابن عمار قصيدة هجا فيها المعتمد بن عباد وزوجته واولاده تكاد تقترب من هذا الهجاء السابق، قد قادتة قصيدته تلك الى حتفه، يقول في مطلعها:

الا حيي بالغرب حيا حلالا
اناخوا جمالا وحازوا جمالا

ومنها في هجو المعتمد:

ايا فارس الخيل يا زيدها
اراك تـوري بحب النساء
حميت الحمى وابحت العيالا
وقد ماعهدتك تهوى الرجالا

ثم في هجو الرميكية واولادها:

تخيرتها من بنات الهجا
فجاءت بكل قصير العذا
ن رميكية ما تساوي عقالا
ر لئيم النجارين عما وخالا

اقاموا عليها قرونا طوالا
وانت اذا لحت كنت الهلالا
ب وارشف من فيك ماء زلالا
م فتقسم جهدك ان لاحلالا
نا واهتك سترك حالا فحالا
قصار القدود ولكنهم
اتذكر ايا منا في الصبا
اعانق منك القضيبي الرطيب
واقنع منك بدون الحرا
ساكشف عرضك شيئا فشيئا

نلاحظ مما تقدم ان الهجاء في هذا القرن قد اقتصر على المقطعات دون الطوال، في الوقت الذي لم يكن فيه الامر كذلك لدى المشاركة الذي استغرق فيه الشاعر قصائده الطوال كما

سياسي خص به أبن حزم وهو ولاؤه لبني أمية وعداؤه العباسيين عندما اثر رايات بني أمية البيض على رايات العباسيين السود.

تلك كانت اهم المناحي التجديدية في غرض الغزل، وهناك جوانب اخرى سيأتي تفصيلها لاحقا لشدة تعلقه بشعر الطبيعة الاندلسي.

اما (الهجاء) فلم تقم له سوق رائجة في الاندلس ولاسيما في القرن الخامس الهجري لغياب دواعيه وانتفاء الحاجة اليه ربما بسبب تأثيرات البيئة الجديدة في نفوس الاندلسيين وسمة الحبور والرضا التي وسمت تلك النفوس لتبتعد قدر الامكان عن كل ما يعكر صفو تمتعهم بطبيعتهم وبمباهج الانس فيها، وقد كان للراقي الحضاري الذي بلغته الاندلس اثره ايضا في هذا الجانب فارتقت الانواق لتتواءم مع ذلك الرقي الذي اخذت الاندلس باسبابه في ذلك القرن. فضلا عن الدور الخطير الذي اداه الحكام في تشجيع المديح واغداق الشعراء بالعطايا السنوية وترك الهجاء ونبذ اساليبه. وكان للنقاد والمؤرخين ايضا دور مهم في تنزيه اشعارهم من كل ما يسيء الى الاخلاق والمجتمع والذوق.

وعلى أية حال فان قصائد الهجاء التي وردت في القرن الخامس ما كانت الا انعكاسا لظروف ذلك القرن وتعبيرا عن احداث عصره، فمن ذلك الهجاء هجاء الفقهاء والمتكسبين بالعلم والزهد، كقول ابن خفاجة:

درسوا العلوم ليملكوها بجدالهم
وتزهدوا حتى اصابوا فرصة
فيها صدور مراتب ومجالس
في اخذ مال مساجد وكنائس

ومنه كذلك في هجاء البرابرة عندما استبدوا بالحكم، قال السميسر:

رايت ادم في نومي فقلت له
ان البرابر نسل منك قال اذن
ابا البرية ان الناس قد حكموا
حواء طائفة ان كان مازعموا

وبرع السميسر ايضا في هجاء الملوك والحكام، فكان نقده اقرب الى النقد الاجتماعي

من الهجاء قائلا:

ناد الملوك وقل لهم
اسلمتم الاسلام في
ما اذا الـذي احدتتم
ايدي العدا وقعدم
فعضا النبي شققتم

كما عرف بين اهاجيهم الهجاء الفاحش المليء بالشتم والسباب والذي تورط فيه الشاعر (ابو بكر المخزومي) الذي كانت بينه وبين نزهون بنت القلاعي معابثات فاحشة وقد (صان ابن

هي الحال في النقائض. ولعل السبب في ذلك يعود الى ان موضوع الهجاء في هذا القرن - ما عدا الهجاء السياسي - لم يكن من الموضوعات الجادة بل هي محاولات محدودة زاولها الشعراء على سبيل التظرف والفكاهة لذلك غلبت على معظمها سمة (الطرافة) في تخير معانيها اما محاولاتهم الجادة فغالبا ما كانت عواقبها وخيمة كما حصل مع (ابن عمار) مما يدل دلالة واضحة على ان الناس في هذا القرن لم يعهدوا تقبل هذا الامر كما عهدوا المشاركة ولا سيما في العصر الاموي إذ الاهاجي المقذعة بين جرير والفرزدق في نقائضها والتي تثبت المصادر انها لم تؤثر مطلقا في طبيعة العلاقة فيما بين الشعارين لان ذلك كان عرفا متداولا وامرا مشروعاً عندهم.

اما (الرياء) فلعله من اكثر الموضوعات الشعرية تأثرا بالبيئة الجديدة وذلك لشدة لصوقه بالذات الانسانية التي جسدت مؤثرات تلك البيئة تجسيدا حيا، وقد كان للطبيعة اليد الطولى في ذلك التأثير اذ تسرب تأثيرها في صميم الوجدان الانساني تاركة مخلفاتها واضحة فيه لتمنحه سمة تجديدية تخصص بها هذا القرن دون سائر قرون الاندلس السابقة، وقد تجلت تلك السمة بتمكن الشعراء من لم شمل النقيضين وهما الرياء بالامه وتباريحه ووجهه البائس الحزين والطبيعة باسراقة طلعتها وبهجتها وجمال افقها، فكانت خطوة جريئة نحو الاصاله اثبت فيها شعراء هذا القرن قدراتهم الفنية وعبقرياتهم المتفردة، وقد منحت الحياة الاجتماعية المرأة مكانة متميزة تجلى تأثيرها في الشعر لتجد (الزوجة) بالذات لها حيزا واسعا بين تلك المرثي اتخذ الشاعر فيها اساليب جديدة وطرائق مختلفة ابتدعتها روح العصر وطبيعة البيئة الاندلسية الجميلة. وذلك ما سنأتي الى تفصيله لاحقا لتعلقه بموضوع الطبيعة واثرها في فنون الشعر المختلفة.

تلك ابرز الموضوعات التقليدية للشعر العربي في الاندلس والتي راينا انها على الرغم من محاولتها الحفاظ على اصولها التقليدية بيد ان مضامينها المتمثلة في تجارب شعرائها الذاتية وفيما تخلق في نفوسهم من معان وافكار نابغة من بيئتهم الطبيعية والاجتماعية، كلها مضامين غلب عليها سيماء الحضارة والتجديد والابتكار.

وقد اتضحت معالم الشعر الاندلسي بحق وتجلت اصالته واضحة في عمق التفاعل الذي حققه بينه وبين احداث عصره، فانبثقت موضوعات عبرت بصدق عن حقيقة ذلك التفاعل الاصيل وحملت سمات تلك البيئة بوجوهها المختلفة كافة، تجلت تلك الموضوعات في شعر الطبيعة ورياء المدن والممالك، وكلاهما وجهان مختلفان لعملة واحدة هي العملة الاندلسية الاصلية. فاما الاول (شعر الطبيعة) فهو تعبير عن شدة تعلق الاندلسيين ببيئتهم الطبيعية والهيام بمفاتها لتترك حضورها الواضح ووجودها المتميز في معظم ابداعاتهم الفنية وقد مثل ذلك وجه الاندلس الباسم المبتهج.

اما الثاني فهو ذلك الوجه المأساوي للشعر الاندلسي المتمثل برثاء المدن والممالك
الاندلسية وهو انموذج للشعر الانساني الذي ما انفك يضرب بعروقه في اعماق النفس البشرية
مفجرا فيها اسمى ايات الابداع ليعبر عن تلك المأساة التي عاشها مسلمو الاندلس وهم يرون
عقد بلادهم ينتثر ومدنهم تتهاوى لتجد تلك المأساة سبيلها تلقائيا في اشعار ذلك القرن.